الفصل الاول

(من ذكريات الصبا)

غادرت المدينة — أستغفر الله — بل هي التي أقصتني عنها ، وأبعدتني عن ملاهيها ونواديها ، عن حدائقها ورياضها ، عن فاتناتها وساحراتها ، عن مشاهد حسنها ومعابد جمالها ، عن الصراع فيها بين الحياة وأبنائها ، عن الشعور فيها بمعنى « الحياة » شعوراً يتغلغل في أجزائها وأرباضها ، عن مدارسها ومعاهد العلم وكعبة الثقافة فيها ، ومناط آمال الشباب المصري الطامح في عهد جديد ، ونور جديد ، يقوده الى « العالم الجديد » ، ويبزله منزلة « الانسان الجديد » !

نعم ! فارقت القاهرة ، وحيل بيني وبين الجامعة ، مهبط آمالي ومعقد رجائي وحقل جهودي ووادي أحلامي ، وقالوا : عطلة ! !

أني أذهب إذن لأقضي شهور تلك العطلة الطويلة المملة ، لاعطي بدني حقه من الراحة وعقلي حقه من الرياضة ؟ ؟ . . . الى الريف ! ! الى ذلك الحمى الهادىء ، وهذا المعبد الساجي الخاشع ! الى مهبط النفوس الثائرة ، ومسكن القلوب المعنّاة ومجمع الآمال الشاردة ، ومسرح الاحلام الهائمة ! ! !

أقضيت إذن عن المدن لأستعيض عن صخبها وحضارتها ،

بهدوء القرية وبداوتها ، ولأستبدل بأبن القاهرة المتحضر المتعلم ، ابن القرية الساذج الجاهل ، فكثيراً ما نجنح الى البساطة والبداوة والجهل ، نطلب فيها قناعة الرضا وهدوء الاطمئنان ، وجلال البداوة ، ونستجم فيها من جهاد العلم ومن اضطرابه وتذبذبه ، وشكوكه وحيرته ، ومن صلف الحضارة وتكاليفها، وهل حياتنا ياصاح الا مزيج مضطرب من الحضارة والبداوة ، والعلم والجهل ، والنور والظلام ، والحق والباطل ، وما شئت من هذه الظاهرات المتناقضة المتعاكسة التي هي سر نظام الوجود ، والنغم أو الاتساق الذي ينظم اضطراب موسيقى الحياة ؟ هل حياتنا الا تفاعل الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والقوة والضعف ، والايمان والشك ، وفي هذا التفاعل وهذا الازدواج قوة الحياة ، وجمال الوجود ، ووحدة العالم ، وكمال الانسانية جميعا ؟

ذهبت إذن أقضي فروض الذكرى والوفاء . لقريتي التي غذتني رضيعا ، وتعهدتني صبيا ، وشاهدتني أحبو على أرضها ، وأعبث بمائها ، وأجري في حقولها ، وأتعلم مبادىء القراءة والكتابة فيها ، وأحفظ القرآن الكريم في كتابها أمام كثير من فقهائها ، ذهبت أستعيدها ذكريات الصبا ، وأقسم لديها يمين البر والحب والولاء ، وأتخذ من دورها وقنواتها وحقولها « وكتابها » وحاراتها وأجرانها وأشجارها وربواتها وحدائقها ومقابرها ، عونى على الذكرى ، ووحيي عند التفكير ، والهامي حين الكتابة ، وأصل

حلقة من حلقات حياتي بالفلاح الساذج الجاهل الطيب المسكين البرىء الذي أحبه وأجله وأشفق عليه !

واذا ما ذكرت « الكتاب » عادت بي ذاكرتي الى عهود الطفولة والصبا ، الى تلك العهود الخالدة من العمر ، بما فيها من حرية تكاد تكون مطلقة ، الى عبث بالغ أقصاه ، الى خوف ورهبة من الفقيه الاعمى ، يلطفه الحنين والشوق الى اللهو مع أطفال الكتاب تارة بفقيهنا ، وتارة أخرى بعريفنا !

لا زلت أذكر « الكتاب » ويوم كنت أساق اليه سوقا بالعصا ، وعينى تذرف بالدموع ، ولا أسكت عن بكائي ولا أجفف دمعي ، حتى يرضيني أبي بقطعة الحلوى أو بالقرش ، تشفعه قبلة أبوية طاهرة ، وكلمة رضية كريمة ، ولا زلت أذكر « سيدنا » الضرير وهو « استاذي » الاول — ان صح هذا اللقب — وكيف كان يرهبني بأسه ويخيفني شكله ويزعجني صوته ، ولا زلت أذكر « لوح القرآن » الخشبي تارة والصفيحي تارة أخرى ، وكيف كنت أنا السابق الفائز فى حفظه واستظهاره بين أولاد الكتاب وحضرات الزملاء !

ولا زلت أذكر أيام المواسم والاعياد ، لا يصرفنا « سيدنا » حتى اسلمه في يده (البريزة) وحتى يسلمه الآخرون الفطيرة أو قطعة السكر

ولا زلت أذكر ذلك العريف الضرير أيضا وصوته الأجش

الخشن ، ونبراته الجافة الغليظة المنكرة ، حتي كاد ان يكرّه لدي وأنا فى طفولتي استماع القرآن !

ثم لا زلت أذكر ولا يمكنني أن انسى يوم كان هذا «السيدنا» ينيب كل واحد منا فى أن يقرأ فى البيوت (ربعاً) حتي يستريح هو من عناء القراءة ويأخذ مرتبه من الفلاحين المساكين زوراً وبهتانا وغشا ، ولا زلت أذكر ذلك اليوم العصيب ، يوم أعد « سيدنا » آخر (الفلكة) الخفيفة ، ويوم أعد معها (الكرباج) لا العصا وغسله بالماء والملح ليتفنن فى الايذاء والايلام ، وجادت رحمته وتدينه الصادق بأن أمر أمره بالقاء ثلاثا من رفاقي أمامه فى الفلكة ، اتهموا بأنهم سرقوا نقوداً من آبائهم وشروا بها سكراً وشاي من الدكان ، أذكر ذلك اليوم كأنه الآن وأذكر يوم وقف هذا « السيدنا » الثاني (على حيله) وربط كل واحد بدوره فى الفلكة وأعطاه نصيبه من الضرب والعذاب الى أن أدمت أقدامهم ، والعريف الجبار الضرير هو الممسك بالفلكة آلة التعذيب ، امساكة لا تخلو من تفنن وأبداع ، وهو بذلك فرح مغتبط ، ونحن جميعاً جالسون على (الحصيرة) حول هؤلاء الفرسان الثلاثة ، نشهد هذا المنظر المؤثر الجميل ، منا من يضحك شامتا فرحا ، ومنا من يبكى شفقة وتألما ، ومنا من اصفر وجهه ومن ذهب رشده من الوجل والخوف خشاة أن تدور عليه الدائرة يوما فيمثل به هذا التمثيل المفجع

ولا زلت أذكر تلك الغرفة الضيقة المظلمة من الطوب النيء (الاخضر) ، والقناة التي كانت أمامها حيث يلعب فيها الاوز والبط الصغير الجميل ، وحيث نعبث فيها بأقدامنا وبما نقذفه فيها من أحجار ، ثم قطع الحصير الاخضر من أوراق البردى وأعواد البوص ، وتلك « الالواح » اللامعة الزاهية من الصفيح موضوعة على الرفوف المتربة المغطاة بنسيج العنكبوت ، وتلك الدوي المصنوعة من الطين المحروق ، وحبرها المتخذ من هباب المصابيح والمسارج ، والمختلط بقطع من الخرق البالية القذرة « وسيدنا » الضرير المعمم ، ومركوبه المرقع وبجانبه عصاته الجبارة « ومقرعته » ، المستبدة الحاكمة بأمرها ، وفلكته المصنوعة من جلال الليف تكاد تبتسم تيها وزهوا بضحاياها ويجبروتها وبما يعلق فيها من أرجل وأقدام لا تزال طرية غضة في غضارة العمر ونضارة الصبا ، وهؤلاء الاخوان الزملاء خارجين من « الكتاب » دار سجنهم ومنزل تعذيبهم ، بجلاليبهم المتربة القذرة ، وبوجوههم المعفرة وأيديهم المزينة بالحبر ، ولن يخرجوا أو يغادروا عتبة « الكتاب » حتى يهرول كل الى داره يعلن الى أمه خروجه من « الكتاب » ثم الى الحارة ، والى الكرة ، والى الاجران !

ولا زلت أذكر هذه اللذة الكبرى التي كنا نشعر بها أطفالا ، حين نبتاع لوحا أو دواة أو مصحفا من « السوق » ، وتدفعنا هذه اللذة الكبرى وهذا الفرح الشديد الى وضعها بين

أحضاننا حين ننام ، حتى لا يسرقها منا سارق أو يعبث بها عابث

ولا زلت أذكر أيضا تلك الساعة العصيبة حين كان يتربع « سيدنا » ويخلع « مركوبه » او « بلغته » ، ويضع بجانبه مقرعته وفلكته وينادي كل واحد منا بدوره فى استظهار ما حفظ من المصحف ، فان أخطأ الشكل أو مخرج الالفاظ أو تلعثم فى كلمة أو آية أو قدم أو أخر ، أسعفه بالمقرعة على ظهره أو على وجهه أو على عينه يحسبها يده أو ذراعه !

نعم ! لا زلت أذكر كل هذا ، تلك الايام والعهود الجميلة الخالدة بحداثتها وطفولتها ، ونقائها ومرحها وفوضاها ولهوها ، ورهبتها وفزعها ، وهل تنسى ذكريات الطفولة وعهود الصبا وأزمنة العبث ؟؟

وسيبقى كل هذا فى ذاكرتي مرتسما فى خيالي ممزوجا بلحمى ودمي مندمجا فى كل اجزاء نفسي ، لانه الصفحة الاولى من تاريخ « نفسي » واللبنة الاولى فى بناء « ذاتيتي » ولهذه الصفحة عندي أجلال القدم وجمال العبث ودالة الصبا

كنا فى تلك العهود المرحة التي لا « مسئولية » فيها ، ولا شعوراً بواجب ، ولا تفكيراً فى الغد المجهول ، ولا بحثا عن حقيقة مخبوءة فى ظلمات الوجود ، تائهة فى « اللانهاية » الواسعة الطويلة العميقة ، كنا فى تلك العهود من العمر ، عهود الطفولة والصبا والعبث والفوضى والفساد ، نعبث بالتراب والرمل ونلهو بكل

ما يقع تحت أيدينا المخربة الهدمة ، حتى الزمن الجبار المستبد كنا نلهو به فى صبانا ونسخر منه ، وهاهوذا الآن يبادلنا اللهو والسخرية وكأنه يقول لنا السن بالسن والعين بالعين ! ! كنا نبني بيوتا من الرمال بين مفترق الطرق وعلى شواطىء الترع ، كأنها بيوت آمالنا ورجائنا ، ثم نجري حولها الماء فى الارض التي خططناها للحدائق والرياض والأشجار ، فاذا هدمت هذه « المنشآت » وهذه الحدائق شاة أو بقرة أو جاموسة أو انسان ، صخبنا وصحنا وغضبنا وبكينا ، لأنها هدمت ما بنينا ، وقوضت ما أنشأنا وسخرت مما فعلنا

ولكن لا يلبث الرمال أن يذوب ، ولا يلبث البيت وحدائقه ورياضه واشجاره أن ينهار ، وهكذا حالنا فى هذا الوجود ! نبني آمالا وأحلاما .. كذابا من الرمال ومن السراب ، ونشيد قصوراً وحصونا من الباطل ومن الوهم ومن الخيال ، وننفق كل أعمارنا فى طلائها وزينتها وزخرفها والتيه فى صحراواتها وفلواتها ، حتى تخيب الحياة آمالنا وتهدم بيوتنا التي أودعنا فيها صبانا ورغباتنا وهوانا وأحلامنا وتفكيرنا وكدّنا وجهودنا وبحوثنا ، وحتى يجيء ذلك « الطوفان » الطامي القاسي وتلك « الموجة » الكبرى فتأخذ معها كل شيء وتبتلع كل ما فى الوجود ، فاذا الآمال رمال ، واذا الاحلام سراب واذا البحث والتفكير هواء !!! حقيقة كخيال ، وحق كباطل ،

وصدق ككذب ، وعلم كجهل ، وغناء كبكاء ، ووجود كعدم ؛
وشيء كلا شيء ! الا ما أكذب الحياة !!!

يا ليت الحياة كلها عهود الصبا ودولة الشباب!

فياليتنا عشنا حيـــاة بلا ردى
مدى الدهر أو متنا مماة بلا نشر

ولكن هل تجدي « ليت » ؟ ! ! !

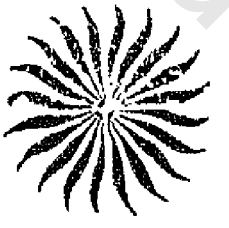

obeikandl.com